

مواقف صحيفة "العمل" التونسية من المخططات العسكرية الفرنسية لقمع ثورة

التحرير الجزائرية

أ/ قشيش فتيحة/ جامعة الجيلالي بونعامة / خميس مليانة

kechichefatiha@gmail.com

ملخص :

تعتبر الثورة الجزائرية من أهم الثورات التي اعتمدت على الدعاية والإعلام في مواجهة الاستعمار ومما لاشك فيه أن التحديات التي واجهتها هذه الثورة والانتصارات التي حققتها في صراعها ضد أقوى وأبشع استعمار عرفه التاريخ المعاصر، وهو الاستعمار الفرنسي، جعلتها تفرض نفسها على مختلف وسائل الاعلام والصحف العربية والدولية، ومنها صحيفة "العمل" التونسية التي أخذت الثورة التحريرية الجزائرية حصد الأسد في اهتماماتها، حيث يتجلى ذلك من خلال حرصها الكبير على نقل أحداثها وتتبع مستجداتها، التي لا نبالغ إذ قلنا بأنها كانت حاضرة في كل أعداد الجريدة، وفي صفحاتها الأولى خلال مرحلة الثورة . وفي هذا السياق حاولنا - من خلال ورقتنا البحثية هذه - أن نبرز تتبع صحيفة "العمل" لمختلف للأحداث و التطورات التي شهدتها السياسة العسكرية الفرنسية إبان الثورة التحريرية ، كما حاولنا توضيح مواقفها إزاء هذه الأحداث، التي عملت على إدانتها واستنكارها والتنديد بها من جهة ، واجتهدت في كشفها وفضحها أمام الرأي العام العالمي من جهة ثانية .

الكلمات المفتاحية : صحيفة العمل ؛ المخططات العسكرية الفرنسية ؛ سياسة القمع؛
الإبادة الجماعية مراكز التعذيب .

Abstract :

The Algerian War For Independence is one of the wars that depended on the press and propaganda. Without doubt, the challenges which faced this revolution and the realized victories against the strongest colonialism of modern history which is the French colonialism made it impose. Itself on the different Arab and international press (The Media). Among these media was the Tunisian « **Work** » Newspaper which was greatly interested in The Algerian Revolution. This was clear in the great care to transfer and follow the different events and news which were present in most of the newspapers' volumes and in the first pages throughout the revolution period. In this course we tried, through this research paper, to highlight the tracing of the « **Work** » Newspaper to the different events and developments witnessed by the Military French Policy during the Revolution for Independence. We also tried to clarify its attitudes towards these events which were condemned and disapproved by this newspaper from one side and aimed to reveal and expose them to the international masses from the other side.

key words : Newspaper "work", French military plans, Repression policy, Torture Centers, Algerian Revolution .

مقدمة :

سارعت السلطات الاستعمارية الفرنسية منذ الوهلة الأولى لاندلاع الثورة التحريرية الجزائرية إلى محاولة القضاء عليها ، منتهجة في ذلك سياسة حربية، تميزت بالاعتماد على أساليب وحشية وكانت سياسة جائرة سواء فيما تعلق بأشكال القمع و التنكيل المسلطة الجزائريين، أو فيما يخص الممارسات التي طالت الجانب الاجتماعي ونالت من أوضاعهم المعيشية ، وهو الأمر الذي اهتز له الضمير الإنساني، وتعالق الأصوات الحرة من أجل استنكاره، وفي مقدمتها وسائل الاعلام و مختلف الصحف المتضامنة مع القضية الجزائرية ، حيث كانت صحيفة "العمل"⁽¹⁾ من بين أهم الصحف التي جاهرت بمواقفها إزاء سياسة القمع والتنكيل التي مارسها فرنسا في الجزائر. فما هي مظاهر هذه السياسة ؟ و كيف تفاعلت معها "العمل"

1- الإبادة الجماعية:

كانت سياسة الإبادة الجماعية التي اتبعتها سلطات الاحتلال الفرنسي في الجزائر إبان الثورة التحريرية محل انتقاد جريدة العمل واستنكارها، حيث نشرت بخصوصها مقالا في عددها الصادر يوم 20 أفريل 1956، جاء تحت عنوان "فضائع الاستعمار الفرنسي ضد الشعب الجزائري"، أدانت فيه وبشدة مختلف ممارسات القهر والاضطهاد المسلطة من طرف الادارة الفرنسية على الجزائريين واصفة إياها بالأعمال الوحشية ، ومنبهة إلى الصدى الذي أحدثته هذه السياسة من إثارة لسخط الرأي العام العالمي والضمير

الإنساني ضد فرنسا، حيث قالت بهذا الخصوص : «... ثم شرعت تباشر ضد هذا الشعب الأعزل قمعا ذريعا وفتكاً وحشياً، فأجلت السكان عن قراهم ومداشرهم بجبال الأوراس بواسطة الحديد والنار، وتركتهم مع أطفالهم ونسائهم بالعراء، دون أي حماية يموتون برداً وجوعاً، ثم باشرت بواسطة الطائرات والمدافع الثقيلة والمتفجرات تحطم القرى والمداشر، فمات تحت الأنقاض أو بواسطة القنابل أو حصداً بالرشاشات من الطائرات أو بأيدي جنود المظلات الشيوخ والعجائز والحوامل والحيوانات ... الأمر الذي تسبب في فضيحة عالمية للسمعة الفرنسية، فأثار بحق سخط الرأي العام العالمي والضمير الفرنسي...».(2)

ومن أبرز أشكال الإبادة التي حاولت الجريدة تسليط الضوء عليها أيضا ، هي الإبادة عن طريق الموت البطيء، وذلك بتجويع السكان وقطع مصادر التموين عنهم⁽³⁾، حيث حاولت لفت أنظار الرأي العام إلى هذه السياسة، التي انتهجتها السلطات الفرنسية بالجزائر، والتي راح ضحيتها الآلاف من الجزائريين، كما عبرت عن مواقفها الراضية لها ، فكتبت بهذا الخصوص تقول: «... وتجويع مئات الآلاف، بل عدة ملايين من سكان القرى والدواوير، بضرب الحصار الكامل عليهم وحرمانهم الحرمان الكامل من التموين بكل أنواعه، وقطع شاحنات الحبوب عنهم وعن حيواناتهم واعداد هذه الحيوانات حتى لا ينتفعوا بلحومها أو يكتسوا بصوفها وأوبارها وأشعارها، ومن المعلوم أن الأغلبية الساحقة منهم يحصلون على أقواتهم مقسطة أسبوعيا من الأسواق أو شهريا ولا يستطيع رب العائلة أن يضمن الذخيرة إلى أمد بعيد، وقد أصبحت جهات كثيرة في عزلة تامة لا يصلها أدنى قوت مهددة بالفناء جوعاً...».(4)

ومن الأساليب التي حاولت الجريدة التنبيه إليها أيضا، وفضح ملابساتها وأهدافها الرامية إلى إبادة الشعب الجزائري، هي تسميم أبناء هذا الشعب، حيث أشارت وفي ذات المقال إلى أن حوادث التسميم المتكررة كانت تؤدي بحياة المئات من الجزائريين، في ظل الغفلة والسكوت المتعمدين للحكومة الفرنسية، التي امتنعت عن فتح أي تحقيق في مثل هذه القضايا- على حد قولها - وذلك لتشجيع مثل هذه الجرائم وإعطاء الضوء الأخضر لمرتكبيها، فقالت في هذا الشأن: «... ومن الأسلوب الجديد تسميم أبناء الشعب، فقد دسّ السم في طعام تلاميذ الليسي الفرنسي الإسلامي في ابن عكنون وكلهم مسلمون، فنقل كل الآكلين إلى المستشفيات، وطُهر كل أثر ولم يُجرى أي تحقيق جدي، كما أصيب الكثير من الأطفال بتسمم جراء حلوى أعطيت لهم من أيدي أوروبية ظنوها بهم رحيمة، وإذا بها تحمل لهم الموت... وأصبحت حوادث التسميم في الأطقمة المعروضة إلى عموم المسلمين تتكرر كل يوم، وتحدث عنها الصحافة، والحكومة غافلة لا تُجري تحقيقا ، وربما كانت شاكرة للمجرمين أنهم يساعدونها على الإعدام الجماعي...».(5)

وقد أظهرت الجريدة تعجبها من هذه الممارسات الصادرة عن الفرنسيين، الذين طالما تغنوا بمبادئ الحرية ورفعوا شعارات الإخاء والمساواة، التي ضربوا بها عرض الحائط في الجزائر- على حد تعبيرها-، حيث لم يحترموا أبسط قوانين الحرب، كما تساءلت عن الجريمة التي ارتكبتها الجزائريون والتي استحقوا من أجلها هذا الجزاء، الذي أثار ردود أفعال قوية في العالم، ولم يستطع أن يسكت عنه حتى بعض الفرنسيين أنفسهم، فقالت بهذا الصدد: «... فرنسا التي حملت يوما من الأيام شعار الحرية والإخاء والمساواة، وأنارت طريق الثورة للأفراد والشعوب... فرنسا هذه تساق في النصف الثاني من ق 20 إلى الوضع البغيض الذي يسمح لها بتسليط أدوات القتال الجهنمية على مجاهدي الجزائر

وتسخير ثلث مليون جندي من قوات البحر والجو والبر، في محاولة لتتكرها أبسط مبادئ الإنسانية وهي السعي لإبادة ملايين الجزائريين واغتيال النساء والأطفال ومحو قرى بأكملها من خريطة الوجود وانتهاك أبسط قوانين الحرب بإعدام المجاهدين ، الذين يقعون في الأسر كأنهم جواسيس في صفوف الأعداء لا وطنيون أحرار يدافعون عن بلادهم... أية جريمة ارتكبها الجزائريون واستحقوا من أجلها كل هذه الأساليب الوحشية ، التي أثارت استمئزاز العالم، ولم يطق أن يصبر عليها حتى بعض الفرنسيين أنفسهم...»⁽⁶⁾.

2- إقامة مراكز التعذيب والمعتقلات والمحتشدات.

لجأت السلطات الاستعمارية الفرنسية للحد من انتشار الثورة وعزل الشعب عنها إلى فرض حضر التجوال والإقامة الجبرية واعتقال المشتبه في أمرهم، وقد ترتب عن هذه الإجراءات توقيف الآلاف من الجزائريين في مراكز الاعتقال، كما لجأت إلى إخلاء كل المناطق المعروفة بولائها لجيش التحرير الوطني من السكان، وجعلها مناطق محرمة وحشد سكانها فيما يعرف بمراكز التجمع أو المحتشدات التي تعرض فيها الجزائريون لشتى أنواع الانتهاكات⁽⁷⁾، حيث تفنن الجيش الفرنسي وأبدع في طرق تعذيبهم والتنكيل بهم ، وهذا بشهادة واعتراف بعض المسؤولين الفرنسيين أنفسهم⁽⁸⁾، وتأكيد بعض اللجان الدولية والصحف العالمية على تدني أوضاع المعتقلين الجزائريين وارتكاب الجيش الفرنسي جرائم حرب في حقهم⁽⁹⁾ .

وفي هذا الاطار كانت "العمل" من بين أهم الصحف التي تابعت وباهتمام كبير أوضاع الجزائريين في السجون والمعتقلات والمحتشدات وسعت إلى لفت انتباه الرأي العام العالمي إلى ما يحدث داخلها من تجاوزات وانتهاكات ارتكبت في حقهم ، وفي هذا السياق وفي مقال لها نشرته يوم 08 جانفي 1960 تحت عنوان "مع الأيام"، حاولت العمل أن تكشف النقاب عن بعض الأعمال الإجرامية التي اقترفتها الجيش الفرنسي ضد الجزائريين بمختلف مراكز التجمع التي تمارس مهامها -على حد قولها- تحت أسماء وشعارات مزيفة ، فبعضها أطلق عليه اسم "مراكز الإيواء" والبعض الآخر "مراكز التربية"، في حين أن ما تقوم به من ممارسات لا يمد بصلة للمصطلحات التي اختيرت لها كأسماء، حيث وصفت الجريدة هذه الممارسات بالأعمال النازية، كونها كانت أكثر فظاعة من جرائم هتلر ضد اليهود- على حد تعبيرها- فقالت :«... لقد كنا نعلم عن وجود معسكرات الاحتشاد في الجزائر التي يسمى بعضها مراكز (الفرز والمرور) وبعضها الآخر (مراكز الإيواء)، لكن تقرير لجنة الصليب الأحمر الدولي أبرز للعيان وجود معسكرات إحتشاد أخرى تحمل أسماء أخرى، فهي تارة (مراكز استنطاق)، وتارة (مراكز الحبس العسكري)، وتارة مراكز إعادة التربية... وهي آخر ما استنبطته عبقرية ضباط الجيش الفرنسي، الذين لم يريدوا أن يتركوا النازيين والشيوعيين والفاشستيين بوجه عام يتفوقون عليهم في شيء فأخذوا عنهم حتى طريقة (غسل الدماغ) التي اختاروا لها تلفظاً واحتشاماً هذا الاسم المغربي-إعادة التربية-...».(10)

كما عبرت الجريدة في مقال آخر عن قلقها وحسرتها إزاء تفاقم الأوضاع الكارثية التي كان يعيشها المحتجزون في مراكز الاعتقال، وذلك بعد صدور تقارير بعض اللجان الدولية، التي كلفت بمعاينة حالة الجزائريين في هذه المراكز، والتي أكدت على تدني

وتدهور أوضاعهم، حيث عبرت عن ذلك بقولها: «...من عشرة ملايين مسلم في الجزائر اعتقل الجيش الفرنسي مليون جزائري وزج بهم في محتشدات حيث يعانون مرارة الحرمان والجوع ... و الأطفال يكونون فيها أكبر نسبة، إذ تصل إلى 75% من مجموع الأهالي الموجودين. ونسبة وفيات الأطفال عالية، ففي مركز به ألف شخص يموت كل يومين طفل منهم و الاستعدادات الطبية غير متوفرة ... إن أهم شيء يلزم العناية به سريعا هي الحالة الاقتصادية، فقد انقطعت وسائل وجود حوالي 200000 شخص ... وفي جميع الحالات كان عليهم أن يكتفوا بما يقدمه الجيش إليهم من مؤنة، يهمل أحيانا توزيعها طيلة عدة أسابيع...».(11)

وفي مقال آخر نشرته على ضوء تصريحات أعضاء إحدى اللجان الأممية التي نزلت بالجزائر لتقصي الحقائق في أعمال التنكيل التي يمارسها الجيش الفرنسي بالجزائر، حاولت الجريدة فضح هذه الممارسات، حيث نددت فيه بمختلف أشكال التعذيب والإرهاق الجهنمية التي يتعرض لها المعتقلون بداية من مرحلة إلقاء القبض عليهم إلى غاية أن يلقي الكثير منهم حتفه تحت وطأة التعذيب ، فقالت بهذا الخصوص: «... عندما تشعر مراكز الشرطة بوقوع اعتداء على أحد الفرنسيين ترسل جماعة من أعوانها فتحاصر المكان الذي وقع فيه الحادث، وبعد حين يعود الأعوان وقد اعتقلوا عشرين أو ثلاثين جزائريا متهمين إياهم أنهم من المشبوه في أمرهم ، ويقضى هؤلاء المعتقلون بضعة أيام في حالة إيقاف، ثم يشرع في استنطاقهم ويجتهد آنذاك المستنطقون في اختيار أنواع التنكيل والتعذيب كالتيار الكهربائي والحديد المحمى، وغير ذلك من السلوك الوحشي، الذي لا يتجرأ المرء على ذكره، ويُرغم المعتقلون هكذا على الاعتراف بما لم يقوموا به، أملاً في التخلص من العذاب ، لأن الإنسان في تلك الحالة يبلغ درجة من اليأس يخير فيها الموت

على بقاء ذلك التعذيب... إن الكثير من المعتقلين والمتهمين بهذه الطريقة الجهنمية يخبرون الانتحار على الشنق ظلماً وعدواناً...»⁽¹²⁾

وعن موقف السلطات الاستعمارية من هذه الجرائم ، أوضحت الجريدة أن سلطات الاحتلال حاولت التملص منها، حيث أنكرت بعضها وبررت الآخر تحت غطاء محاولة القضاء على الارهاب الأمر الذي يتطلب لجوئها إلى أساليب التعذيب والاستنطاق، فقالت : «...أما الأوساط اليمينية والأوساط القريبة من الجيش، فقد كذّبت بادئ ذي بدئ، ولما رأت الحجاج الدامغة تنزل عليها كالوابل، حاولت تبرير التعذيب بأنه يستعمل لحماية الأنفس البشرية...»⁽¹³⁾

وفي ذات السياق نبهت الجريدة إلى الصدى الذي أحدثته هذه الممارسات، من ردود أفعال قوية على مستوى الرأي العام العالمي، الذي أصبح يطالب الحكومة الفرنسية بضرورة تأسيس لجان لحماية الحقوق والحريات الفردية في الجزائر، كما أشارت إلى أن شخصيات هذه اللجان ممن أوكلت إليهم مهمة التحقيق، لا يملكون السلطة الكافية للخوض في مسؤولياتهم، حيث يتعرضون لمضايقات الحكومة الفرنسية، الأمر الذي يجبرهم - في الكثير من الأحيان - على التخلي عن مهمتهم، وقد أشارت إلى ذلك بقولها: «... إن حالة الجزائريين كانت مثار التعليقات والاهتمام، منذ أن بدأت هذه الحرب الشنيعة، وقد أثارت في مناسبات عديدة سخط العالم واحتجاجه، سواءً بسبب التعذيب الذي يتعرض له المعتقلون عند استنطاقهم من طرف البوليس والجيش الفرنسي، أو بسبب أساليب المعاملة التي يلقونها في المعتقلات... وقد أُجبرت الحكومة الفرنسية إزاء تأثير الرأي العام على تكوين لجنة لحماية الحقوق والحريات الفردية، تتكون من شخصيات

معروفة بوفائها للأخلاق، ولكنها تركت مهمتها بعد أن استقال أغلب أعضائها، لأنهم لا يملكون السلطة الكافية للبت في المشاكل المعروضة عليهم...»⁽¹⁴⁾

3- الاستعانة بقوات الحلف الأطلسي.

أعلنت الجريدة موضوع الدراسة عن مواقفها الرافضة لقضية مساندة دول الحلف الأطلسي لفرنسا في حربها ضد الجزائر، وحذرت من هذا الأمر لما له من انعكاسات خطيرة على السلم العالمي - حسب رأيها - ، كما انتقدت وبشدة سياسات هذه الدول التي سمحت عن طريق مساعدتها لفرنسا باستمرار حرب الإبادة ضد الشعب الجزائري، فقالت: «... إن صح ما صرحت به الدوائر الدبلوماسية الباريسية الغربية من أن قوات الحلف الأطلسي ستتدخل بصفة مباشرة في حرب الجزائر إلى جانب فرنسا... إذ صح ذلك، فإن هذا الموقف ينبيء بفقدان وعي لدى الغرب يكاد يكون مطلقاً، إذ أنه يقود الشعوب الأفريقية - بل العالم بأسره - نحو حرب عامة يقرع فيها السلاح وأي سلاح ، فعوضاً أن تفكر تلك الدوائر الغربية في الوسيلة الناجعة لإنهاء الحرب، وعوضاً عن أن تعمل على إقامة الدليل في هيئة الأمم المتحدة على أنها تسعى للسلم، تبث أقوالاً لا تقدير لمسؤولية التاريخ ولا للواجب البشري فيها...»⁽¹⁵⁾

وفي مقال آخر حملت الجريدة الحلف الأطلسي مسؤولية استمرار الحرب التي تخوضها فرنسا في الجزائر، والتي تقوم فيها باضطهاد شعب كامل بمباركة ودعم مطلقين من طرف دول هذا الحلف -على حد تعبيرها -، كما أظهرت تعجبها من هذا الحلف الذي أراد لنفسه أن يكون أداة في يد الاستعمار، الذي يحمل في طياته بذور التوسع وزعزعة السلم في منطقة البحر الأبيض المتوسط فقالت في هذا الشأن: «...إن فرنسا تقوم بحرب

استعمارية في الجزائر منذ خمس سنوات بمساندة العتاد والسياسة و الدبلوماسية التي تمدها بها بعض الدول المشاركة في هذه المنظمة، ومما لا جدال فيه هو أن الجيش الفرنسي الذي يحارب في الجزائر مؤلف من فيالق تابعة للحلف الأطلسي... إن شعبنا لا يفهم كيف أن دولاً أعضاء في الحلف الأطلسي تقبل أن تكون هذه المنظمة أداة للاستعمار الذي يحمل في طياته بذور التوسع في منطقة العمليات الحربية، ويهدد السلم في كل أنحاء البحر الأبيض المتوسط...»⁽¹⁶⁾.

وفي تحديدها لخلفيات هذا الموقف، الذي اتخذته دول الحلف الأطلسي من الثورة الجزائرية أرجعت الجريدة أسبابه إلى محاولة هذه الدول حماية المعسكر الغربي الرأسمالي من التصدع وحماية منطقة البحر الأبيض المتوسط من الزحف الشيوعي، وكذا إلى طمعها في خيرات وثروات الصحراء الجزائرية ، فقالت: «... ولا غرابة اليوم إذا ما ساومت فرنسا حلفاؤها على أن يساعدها على مواصلة الحرب الجزائرية، وإلا هددت بتصديع الوحدة الغربية ، وقد ركزت الدبلوماسية الغربية بادئ الأمر إهتمامها على الظفر بتأييد أوروبا الصغرى بدعوى التضامن الذي تفرضه السوق الأوروبية المشتركة وماذا ترغب فرنسا بعد؟ ... إنها لن تكتفي بمساندة حلفائها الأوروبيين، الذين خلبت أبصارهم خيرات الصحراء، بل تسعى لاغتصاب مساعدة أمريكا وبريطانيا باسم التضامن الأطلسي في هذه الظروف التي يحتاج فيها الغرب للمحافظة على وحدة صفوفه لاستئناف المفاوضات مع روسيا...»⁽¹⁷⁾.

4- إقامة خطي شال و مورييس.

أثارت قضية إقامة هذين الخطين المكهربين على الحدود الجزائرية التونسية والمغربية غضب جريدة "العمل"، والذي عبرت عنه في افتتاحية عددها الصادر يوم 18 فيفري 1962، حيث استنكرت فيها هذا الأسلوب الاستعماري، الذي وصفته بالعمل الإجرامي، مبرزة تداعياته وانعكاساته الخطيرة على سكان المناطق الحدودية كونه حوْلاً - حسب رأيها- من مناطق كانت تمثل مصدر رزق لقاطنيها إلى مناطق محرمة مزروعة بالأسلاك المكهربة والألغام، غير مبال في ذلك بمصير الآلاف من الجزائريين، الذين وجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها هائمين بدون قوت ولا مأوى، حيث قالت في هذا المضمار: «... ويذكرنا هذا الأسلوب الاستعماري بجريمة أخرى اقترفتها فرنسا مابين أواخر وأوائل سنتي 1957 و1958، وهي تسليط التعسف على قسم من الجزائريين القاطنين على الحدود التونسية، إذ جعلت من التخوم المنطقة الحرام لإقامة خطي موريس وشال وأسلاكهما المكهربة ونفذت عند ذلك خططها الجهنمية، غير مبالية بمصير الآلاف من المواطنين الجزائريين، الذين وجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها هائمين على وجوههم وحرموا من المأوى والقوت هكذا بدون شفقة ولا رحمة... وتوغلت فرنسا في عملها المنافي لأبسط قيم الإنسان، بالرغم من موجة السخط وازدادت توغلا حتى في عهد ديغول لاحكام غلق الحدود...»⁽¹⁸⁾

5- إختطاف طائرة الزعماء الخمسة 1956/10/22.

بعدما أدركت السلطات الاستعمارية الفرنسية خطورة الثورة التحريرية، أمام فشل إجراءاتها العسكرية ومشاريعها الإصلاحية في القضاء عليها، لجأت إلى تدبير مكيدة إختطفت على إثرها خمسة زعماء من قادة الثورة الجزائرية في 22 أكتوبر 1956⁽¹⁹⁾، معتقدة بأن هذه العملية سوف تقضي على المشروع الثوري من جذوره.

وعلى إثر هذه الحادثة نشرت "العمل" مجموعة من المقالات، عبرت فيها عن تضامنها المطلق مع الجزائريين، الذين دعتهم إلى ضرورة التحلي بالصبر والإيمان والتمسك بالجهاد، وعدم السماح لليأس والقنوط بالتغلغل إلى نفوسهم، كون أن ما أقدمت عليه السلطات الفرنسية - حسب رأيها - لا يزيد عن مجرد محاولة فاشلة يائسة للقضاء على الثورة، وذلك اعتقاداً منها أن هذه الأخيرة هي عبارة عن ثورة شخصية قائمة على أشخاص معينون، لا ثورة شعبية عارمة قائدها الوحيد هو الشعب، كما أدانت الجريدة وبشدة عملية الاختطاف هذه وأبدت سخريتها منها، معتبرة إياها من الأعمال المحسوبة على الغدر والخداع، حيث عبرت عن ذلك بقولها: «... شدوا العزائم واصبروا ولا تنهوا فأنتم الأعلون إن كنتم مومنين والمؤمن قوة وعقل وشعور وتدبير، فإن الساعة حرجة ولكن لا يأس ولا قنوط ولا فوضى بل نظام وثقة في الله وفي المستقبل المأمول... لقد اعتقل بن بلة وخيضر وآيت أحمد والأشرف وبوضياف فتحيا الجزائر حرة مستقلة وليحيا المغرب العربي الموحد واللعنة على الغدر والغادرين والخسران المبين للاستعمار الفرنسي، فما هذه الأخلاق وما هذا الحمق وما هذه السخافة وهذا التوتر؟...» (20)

وفي ذات المقال تستمر الجريدة في تحليل ومناقشة حيثيات ومجريات هذه الحادثة التي تعرض لها قادة الثورة الجزائرية، فتذكر بأن العملية جاءت بعد قبول جبهة التحرير الوطني للدعوة التي وجهتها لها السلطات الفرنسية لعقد ندوة للنظر في القضية الجزائرية وتوجيه نداء إلى كل من الحكومة المغربية والتونسية للعب دور الوسيط في حل هذه القضية، وبعدها إتفقت الأطراف المعنية على عقد قمة مغاربية في أكتوبر 1956 بتونس، إنتقل الوفد الجزائري من المغرب الأقصى لحضور هذه القمة فتعرض لقرصنة جوية اضطرت على إثرها الطائرة المقلدة له إلى الهبوط بمطار الجزائر، وقد عبرت الجريدة عن هذه الأحداث

بقولها: «...إن فرنسا تعلم علم اليقين أن بقاء الأوضاع بالجزائر على ماهي عليه من سيطرة إستعمارية وحرب عدوانية متواصلة لا سبيل إليه، والحكومة الفرنسية أيقنت منذ مدة بأنها فاشلة في الحرب الاستعمارية لا محالة، فأخذت تتوسل وتنشد الخلاص من المأزق فلم يتأخر جلاله سلطان المغرب الشقيق والمجاهد الأكبر عن السعي والوساطة، ولما قربت النتيجة واقتنع المناضلون الجزائريون بأن النية حقيقية وأن الحيز في السلم والتعاون مع تونس والمغرب في إقرار السلام في ربوع الشمال الافريقي ممكن، ولما حدد موعد ندوة تونس ولم يبق لوصول الوفد الجزائري للعاصمة التونسية إلا بضعة ساعات، إمتدت يد الغدر الأثيمة إلى قادة الجزائر الميامين، فحولت طائرهم بالقوة النفاثة عن طريقهم وأنزلوا إلى وطنهم المنكوب بالظلم والقهر والجبروت...».(21)

وفي طرحها لأبعاد هذه الحادثة أكدت الجريدة على أن استدعاء السلطات الاستعمارية قادة الثورة الجزائرية للنظر في قضيتهم واقدامها على احتجازهم، ماهو إلا اعتراف رسمي بجهة التحرير الوطني وبشرعية تمثيلها للشعب الجزائري، فقالت: «...وهم الذين عرفتهم فرنسا منذ سنوات وأيقنت أنهم قادة السفينة، ولكنها زعمت دائما وأبدا أن السفينة بدون قائد في حين تحاول خفية الاتصال بهم والتفاهم معهم وهم يرفضون عروضها، لأنهم لا يثقون في عارضيتهم... إن تونس والمغرب يعترفان بهذه الجبهة وفرنسا نفسها تعترف بها، وهي التي كانت تزعم أنه لا وجود لممثلين للشعب الجزائري، وإذا بها بعد اعتقال ابن بلة ورفاقه تؤكد أنهم رأس الحركة الجزائرية، ولا غرابة إذ تفاوضت غداً معهم، كما تفاوضت مع جلاله محمد الخامس ومع الحبيب بورقيبة وهما في حالة اعتقال...».(22)

وفي مقال آخر نشرته بتاريخ 22 أكتوبر 1961 في الذكرى الخامسة لحادثة الاختطاف حاولت الجريدة أن تقف على آثار وانعكاسات هذه الحادثة على مسار الثورة التحريرية، فراحت تعبر عن سخريتها من العملية التي لم تُحل - على حد قولها - دون استمرار الثورة، بل زادت قوة وصلابة على جميع الأصعدة السياسية والعسكرية والدبلوماسية، فأصبحت تلحق الهزائم المادية والمعنوية بالجيش الفرنسي، حيث قالت: «... وهماهي ذي خمس سنوات تمر بعد اعتقال الزعماء الجزائريين الخمسة أحرزت خلالها الثورة إنتصارات عديدة سواء في الميدان السياسي بقيام الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ومن بين أعضائها الزعماء المعتقلون أنفسهم، واعترفت بها الدول العديدة أو في الميدان العسكري، حيث أصبح جيش التحرير الوطني الجزائري قوة هائلة منظمة ومجهزة تديق جيش الاحتلال الغاشم الهزائم تلوى الهزائم، وسواء داخل الجزائر أو خارجها كان التوفيق والنجاح حليف الثورة الجزائرية، واليوم هل يراجع الفرنسيون حساباتهم، ليروا هل أفادتهم بشيء تلك العملية الخسيسة؟...» (23)

6- الاعتداء على الدول الداعمة للثورة " قبلة ساقية سيدي يوسف 08-02-1958"

وجد الشعب الجزائري أثناء ثورته المباركة كل أنواع التأييد والمساندة من الشعب التونسي وحكومته وقد كان رد فعل السلطات الاستعمارية الفرنسية إزاء هذا الأمر، هو إتباع أسلوب المضايقة والاعتداءات، من أجل ترعيب السكان وترهيبهم للكف عن تقديم المساعدات لجيش التحرير الوطني والحيلولة دون استمرار مواقفهم الداعمة للثورة التحريرية. (24)

ولعل أبرز مايمكن الاستشهاد به حول أساليب الاعتداء والترهيب هذه ، هو قيام الجيش الفرنسي بقتلة قرية ساقية سيدي يوسف الحدودية وذلك في 08 فيفري 1958، حيث خلف قصف الطيران الفرنسي لهذه القرية مقتل حوالي إثنا وسبعون شهيدا من بينهم أطفال ونساء، وجرح سبعة وثمانون آخرين بجحة تتبع المجاهدين ومطاردتهم .

أثارت هذه الحادثة ردود أفعال قوية وكان لها صدى واسع في الصحف التونسية وعلى رأسها صحيفة العمل التي تتبعت وباهتمام منقطع النظير خلفيات وحشيات وكذا تداعيات هذه الحادثة، ففي مقال نشرته بتاريخ 09 فيفري 1958 جاء تحت عنوان "اعتداءات على ساقية سيدي يوسف" صورت الجريدة مشاهد للفظائع التي إرتكبتها الطيران الفرنسي في هذه الحادثة في حق الأبرياء العزل من نساء وشيوخ وأطفال، كما أدانت هذا العمل الذي وصفته بالعمل الجبان، رافضة مختلف الحجج التي بررت بها السلطات الاستعمارية اعتداءتها هذه، والتي أرجعتها إلى محاولة تتبع الثوار الجزائريين المتواجدين بالساقية، كما أظهرت الجريدة سخريتها من هذا التبرير مؤكدة على أن القرية المقصوفة لم تكن تعج إلا باللاجئين الجزائريين، الذين كانوا قد تجمعوا بها لتلقي مساعدات الصليب الأحمر الدولي، فقالت بهذا الشأن : «... تلك المشاهدة المؤلمة لقرية إجتمع بها الأطفال للدرس وأهل الرحمة لإسعاف المنكوبين فنزلت عليهم القنابل من السماء، فإذا السوق خراب، وإذا القرية مقبرة، وإذا الأطفال أشلاء مبعثرة، وإذا الناس بين الحزن والغیظ وبين الثورة والبكاء، فلا يتمالك من تجنبته القنابل، إلا الترحم على الذين أودت بهم يد الغدر، فقضت عليهم قضاء مبرماً فاجعاً مؤلماً مثيراً للغضب ومثيراً للنقمة... كان حصاد هذا العدوان الوحشي البشع ثمانية وستون شهيدا جميعهم تونسيون من بينهم 12 طفلا و 09 نساء، وقد ارتكب المستعمرون كل هذه الفظائع تحت ستار

مقاومة الثوار الجزائريين المتجمعين بالساقية، ولم يكن الثوار في الحقيقة إلا لاجئين جزائريين من شبوخ وأطفال ونساء، تجمعوا أمام المعتمدية لتوزع عليهم عطايا الصليب الأحمر الأممي...» (25).

وفي تحديدها لأسباب وخلفيات هذا الإعتداء أرجعت "العمل" أسباب هذا الاعتداء الذي تعرضت له ساقية سيدي يوسف أرجعت الجريدة أسبابه إلى تمسك التونسيون بالثورة الجزائرية، وعدم تخليهم عن مبدأ تأييدها ومساندتها بشتى الطرق والأساليب حتى تحقق مبتغاها في إسترجاع السيادة والحرية فقالت : «... فقد مات أبناء الساقية لأن تونس المستقلة أرادت المحافظة على سيادتها، وماتوا لأن تونس رفضت أن تتخلى عن مساعدة الشعب الجزائري الشقيق، وماتوا لأنو تونس ماضية في مساعدة الجزائر المكافحة ولأنها تريد أن تحقق الجزائر آمالها في الحرية ورغبتها في العزة القومية، وأن تنتهي هذه الحرب التي تطحن شعب الجزائر طحناً وتهز شمال إفريقيا كله من حين إلى حين...» (26).

خاتمة :

واكبت صحيفة العمل التونسية الأحداث التطورات التي شهدتها السياسة العسكرية الفرنسية إبان الثورة التحريرية بمختلف مظاهرها، حيث إتسمت مواقفها إزاء هذه الأحداث برفضها القاطع من جهة والعمل على كشفها وفضحها أمام الرأي العام من جهة أخرى، فبالنسبة لسياسة العقاب الجماعي ومختلف أساليب الإرهاق والتعذيب التي كانت تمارس داخل مراكز الاعتقال والمحتشدات ، فقد أدانتها الجريدة بشدة واجتهدت في التشهير بها معتبرة إياها جرائم حرب ستبقى وصمة عار في تاريخ الجمهورية الفرنسية،

التي طالما تغنت بمبادئ الحرية ورفعت شعارات الإخاء والمساواة، كما استنكرت الجريمة حادثة القرصنة الجوية التي اعتقل على إثرها زعماء الثورة الخمسة، ونددت بالعدوان الفرنسي على قرية ساقية سيدي يوسف، كما أثار مشروع الأسلاك الشائكة المكهربة غضبها، ومع ذلك أظهرت سخريتها من هذه المخططات مؤكدة على أنها فشلت فشلاً ذريعاً في إخماد نار الثورة.

الهوامش :

(1) - هي صحيفة أسبوعية وطنية، سياسية، اجتماعية، ثقافية، الناطق الرسمي باسم الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد تأسست في 01 جوان 1934، تعرضت "العمل" لقرار منع الصدور في نفس السنة التي ظهرت فيها، وذلك في 03 أوت 1934، ثم عادت للصدور في 30 جويلية 1937، حيث ظهرت من جديد كنشريه أسبوعية رسمية باسم الحزب الحر الدستوري التونسي، ثم منعت من الصدور مرة ثانية في 07 أفريل 1938، حيث صدر قرار في شأنها يقضي بإيقافها لمدة ثمانية أيام، وقبل نهاية الأيام الثمانية أصدر المقيم العام الفرنسي قراراً في 12 أفريل 1938، ينص على حلّ الحزب الدستوري التونسي الناطقة باسمه وبهذا توقفت نهائياً عن الصدور، ولم تستأنف إلا في 25 أكتوبر 1955 وتحولت منذ ذلك التاريخ إلى صحيفة يومية، حيث أصبحت من الصحف الكبرى في المغرب العربي.

(2) - فضائع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، العمل، العدد 154، 20 أفريل 1956، ص 04.

(3) - محمد الصالح الصديق، كيف ننسى وهذه جرائمهم، دار هومة، الجزائر، 2012، ص ص 213-214.

(4) - فضائع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، مقال سابق، ص 04.

(- نفسه.⁵)

(- الجزائر والصهيونية العالمية، العمل، العدد 188، 31 ماي 1956، ص 06.⁶)

(7-) الأخضر بوطمين، المحتشدات الإجبارية خلال الثورة التحريرية، مجلة أول نوفمبر، العدد 136-137، ص 24.

(8-) ومنهم الجنرال أوساريس، الذي يعترف في شهادته، بأنه اقترف جرائم حرب في الجزائر، وبأنه اقترف ما اقترفه تنفيذا لأوامر السلطات الفرنسية العليا. للمزيد حول هذه الشهادة راجع: الجنرال أوساريس، شهادتي حول التعذيب، تر: مصطفى فرحات، دار المعرفة الجزائر 2008

(9) - رشيد زبير، مرجع سابق، ص 134.

(10) - مع الأيام، العمل، العدد 1308، 08 جانفي 1960، ص 04.

(11-) مخازي الجيش الفرنسي في الجزائر، العمل، العدد 1090، 1959، ص 02.

(12-) أعمال التنكيل والتعذيب المسلطة على الجزائريين كما يصفها شاهد عيان من الفرنسيين، العمل، العدد 565، 18 أوت 1957، ص 06.

(13-) استعمال التعذيب في الجزائر، مقال سابق، ص 04.

(14) - نفسه .

(15) - مع الأيام، العمل، العدد 1569، 08 نوفمبر 1960، ص 1.

(16) - فرحات عباس يحمل دول الحلف الأطلسي مسؤولية استمرار الحرب، العمل، العدد 1407، 04 ماي 1960، ص 01.

(17-) أضواء على الأنباء، العمل، العدد 1142، 28 جوان 1959، ص 04.

(18) -- مع الأيام، العمل، العدد 1969، 18 فيفري 1962، ص 06.

- (19) - وهم محمد خيضر، أحمد بن بلة، حسين آيت أحمد، محمد بوضياف، ومصطفى الأشرف.
- (20) - حي على العمل، العمل، العدد 311، 24 أكتوبر 1956، ص 01.
- (21) - نفسه .
- (22) - حي على العمل، العمل، العدد 311، 24 أكتوبر 1956، ص 05.
- (23) - مع الأيام، العمل، العدد 1868، 22 أكتوبر 1961، ص 01.
- (24) - حبيب حسن اللولب، التونسيون والثورة الجزائرية، ج2، منشورات سيدي نايل، د ط، د ت ن، ص 192.
- (25) - اعتداءات على ساقية سيدي يوسف، مقال سابق، ص 01.
- (26) - حق الشهداء، العمل، العدد 1334، 07 فيفري 1960، ص 01.